

ويوم ارتكفنا شمالا / كما كنا ارتكفنا لجنوب / وتركنا المياه المقدسة / يلونها المغتصبون / يلوثها أكثر الإخصياء .

...

يوم تركنا الديار / ولم نحمل معنا / سوى الذكريات ، والخاوف والمناشئ ، / وقام بين الديار وبيننا / سيف مديد عنيد .

...

عرفت ان عهد التيه استهل / ولا بعد أمان ، / ان كل قطر معاد / وكل بحر قد نشفأ / وكل خيط قد انقطع .
وفي قصيدة سابقة (القصيدة الرابعة عشرة في «القصيدة ك») يتذكر توفيق بيته الذي بقي وراءه في وطنه ويندب وضعه الحالي منغيا ولاجئاً فيقول :

تشقت قدمي أبلاني العراء . / ومعاقد الباركات تركت / قرب أضلعي أضلعا جندا . / نظر لي الشرطة
شزرا / وتجررت من مكان لمكان ، / معهما ، الا / من ذكريات طوال النهار لمنزل / كان لي بالامس /
بالامس وحسب ، / وفي العشايا / من رؤى / لسكناي فيه من جديد ، / توظني / لاهجا (لا اغفر) / بمن
(لا استطع اللعن) / شردني .

لا يحصر توفيق نفسه هنا ، كما في كثير من قصائده ، ضمن حدود المعنى الظاهر للنفي المادي من فلسطين . فعلى الرغم من انه قد يتكلم عن اللاجئين العسرب الفلسطينيين ولاجئي الشعوب المهورة الاخرى في القرن العشرين المتميز بظاهرة اللجوء فإنه يمكننا فهم قصيدة توفيق بمعنى آخر . فهو يتحدث من الناحية الرمزية عن الانسان الحديث الذي كتب تاريخه بالنار والذي تطارده قوى الشر من المياه المقدسة ليحيا في منفى عن الله . فهو يعائني في تلهفه للعودة الى يسوع الشاب الذي يحمله الى وطنه الالهي .

ويجد سعي الانسان الحديث الى الخلاص الروحي في ملكوت الله صورته في قصيدة رمزية اخرى هي القصيدة رقم ٢٤ من مجموعة «القصيدة ك» حيث يفقد الشاعر ، وهو المسافر بدون جواز سفر ، الامل في دخول ملكوت الله ابداً مثلما فقد الامل اطلاقاً بالعودة الى فلسطين المحتلة . انه يشعر نفسه وكأنه على ظهر سفينة ترسو في ميناء بعد اخر دون ان يسمح له بالنزول على ظهرها لانه لا يملك جواز سفر . ينزل مسافرون ويصعد آخرون وهو يبقى على متن السفينة يمنعه باستمرار عملاق من النزول في ميناء وجهته . وتأتي لحظة ينادي عندها بصوت حزين شجي :

« أوراقي سلبية / في كل جيب شهادة ، / لماذا لم يصدروا لي جوازي ؟ / ماذا وشى بي ؟ من وشى ؟ /
ما تهمني / فادفع تهمني ؟ / وليس في اليم سفارات » . / « وما سفارتك ؟ » / « كنت أعرفها / ارتادها في
كل مناسبة : / نسيت نسيت / ما سفارتي » .

لم يكن شعر توفيق بشأن الوطن شعرا حماسيا انفعاليا في لهجته ، وذلك على عكس الكثير مما نشر من الشعر في هذا الوقت . وبما ان الوطن في شعر توفيق لم يكن محدودا ضمن مفهوم جغرافي فإنه شمل الثقافة والحضارة العربية ككل . لقد أحزنه حزنا شديدا وحز في نفسه ان يرى العالم العربي يتلكأ خلف الامم الاخرى ويتقسم على نفسه ويهدر طاقاته او يخضع لحكم الفرد من حريته التي هو بحاجة ماسة اليها اذا كان ليساهم في بناء وطن عربي حديث . ونظر توفيق الى الامجاد العربية الغابرة فصعب عليه ان يصدق انهم وصلوا الى الحالة المتدنية التي هم فيها الان . ولكنه يعكس اعتقاده بذلك ليقول في مجموعته « ثلاثون قصيدة » قصيدة بعنوان « نشيد وطني » :

أحقا عرفت صيبا / وحقا أثار الفتنة / اصطخاب ردميك في الشباب ؟ / أحقا ترأست المتدى / وكمرست